ما يعتذر منه

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾

(البقرة: ١٤٣)

أدري أن الشخصية العراقية البارزة في الموالاة والمعارضة حسن العلوي، ربما يتأفف من وضعه في كفة، على التي تقابلها شخصية نكرة في رأيه، وشاب صغير بالنسبة إليه، يتردد تاريخه بين مسجد الفريان وقرى بيشاور، فمنتدى الساحة العربية. فيما هو يعد نفسه ويعتبره محبوه الكاتب والمثقف والمؤلف الذي كان رقماً صعباً أينما حلّ في العراق ولندن وسوريا والرياض.

وأدري أن إمام المصلين والحافظ لكتاب الله والساخر السليط حسن مفتي الذي فاخر في توضيح نشره بعد حواري معه في منتداه السابق بأنه يتقرب إلى الله بفضح مخالفيه ممن يصفهم بالعلمانيين والليبراليين «وهتك أستارهم والسخرية بهم وتسفيه أحلامهم، ومقارعتهم بالسنان واللسان»!!، ربما يستنكف من وضعه في سلة واحدة مع شيعي يفاخر بمذهبه وعلمانيته، مهما كان منصفاً وموضوعياً!

لا يغيب عني ذلك حين قررت جمع الرجلين في دفة واحدة، ولو شئت لقلت: «إن المصادفة التي جعلت والديهما يطلقان عليهما اسماً واحداً والتي جمعتهما في (**دار العبيكان**) حين نشرت للأول «عمر والتشيع» وللثاني «انتحار حمار»، وفي صحيفة«الحياة» التي نشر فيها حواري معهما (عام ٢٠٠٧)، هي نفسها التي قرنتهما هاهنا».

كم سيكون ذلك مندوحة عن الوقوع في فخ النقاط المشتركة بين الحسنين، لولا أنني سأعده من داخلي هروباً لا أستسيغه.

أما النقاط المشتركة بين حسن العلوي وحسن مفتي، فهي كثيرة غير أنني أكتفي بواحدة، هي التي دفعتني لوضعهما بين غلافين، من دون شخصيات كثيرة أجريت معها حوارات أطول وأكثر إثارة.

النقطة هي أن كليهما «كان في وسط مرعب، قرر الخروج منه نسبياً فمدّ يداً لمصافحة وسط جديد، قد لا يكون ثمن مصافحته بالضرورة الكفر بنبلاء الماضي وأشقيائه على حدٍ سواء». فليس معقولاً أن يكفر العلوي ببغداد ولا بأئمة أهل البيت، ولا أن يقدم مفتي الشوك لبعض أصدقائه الذين زرعوا في طريقه الورد، حتى بعد أن قرر الرحيل عنهم.

هوناً ما!

إن العبرة الأولى والثانية، وتعداداً حتى الألف من تحول الرجلين، كانت في حكمة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما قال: «أحبب حبيبك هوناً ما، فعسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، فعسى أن يكون حبيبك يوماً ما». والعبرة الأكثر أهمية هي «كيف سيكون حسابنا يوم القيامة؟ وكيف سيقف الناس منا يوم الدين؟ وكيف سينقلب علينا الخلان والمصفقون إلى شهود يدينوننا يوم الدين؟! وإذا كان هذا اليوم وهو في الدنيا مُرّ وصعب! فكيف يوم الدين؟» كما يشير كاتب في المنتدى نفسه،عقّب على اعتزال «الخفاش» الكتابة فيه.

وكأني بهاجس الرجلين أكثر ما يكون حول الطريقة التي سيقابلان بها شخصاً كانا بالأمس قد أساءا إليه، خصوصاً مفتي، الذي لم يبرح المجتمع الذي يختار ضحاياه من بين أفراده أيام تفرده في الساحة بسلخ من ينتقيهم على طريقة أقرب إلى الشواء منها إلى النقد الموضوعي والتقويم المنهجي.

وفي أثناء طبخ مفتي قرار اعتزاله الساحات، والمنهج النقدي الذي كان يتبناه فيها، اتفقنا أنا وهو على أن أحدنا لو سلك منهجاً وسطاً في حبه وكرهه ومدحه ونقده، لما واجه حرجاً في التحول عن موقفه، إذ على قدر أخذ المرء بقيمة «العدل» الذي يفسر «الوسطية» يكون قدره من الحظوة باحترام المختلفين معه والمؤيدين، ويجد أذناً صاغية ممن أقبل عليهم بوجهه ويحظى بتفهم من ولاهم الأدبار.

وإذا كانت هذه المسألة في ظني محل اتفاق، فإن البشر جميعهم بطبعهم وجبلتهم معرضون لتغيير مواقفهم، وآرائهم، وتوجهاتهم وولائهم، ومعتقداتهم أحياناً، ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ (الرعد: ٣٩)، فإن العاصم من الحرج أمام الله والخليقة هو سلوك العدل والوسط فيما يأتي المرء وما يذر ما استطاع، وإلا فإن الثبات على رأي أو توجه ما، فضلاً عن كونه مستحيلاً في الغالب، هو ليس بالضرورة أن يكون خلقاً رفيعاً، أو فعلاً سديداً.

وأي مجتمع أو جمهور ذلك الذي يتفهم مقاصد شخص، يدبج فيه المدائح، ويتلو فيه الشعر والنثر، ويصم آذانه عن مثالبه، فيما يفتح كل مخارج قلبه وجسده لمحاسنه، ويبحث لزلاته عن التأويل الحسن، حتى إذا عنّ له ذلك، نكص على عقبيه، نقضاً للمديح بالهجاء، وللمحاسن بالمثالب. أي بشر مجتمعاً كان أو دولة أو فرداً يستوعب هذا أو يعيه؟

وكم ستحتاج قِبلة المتطرف في حبه أو كرهه الجديدة، من حلم حتى تصفح عن شخص أوسعها ذماً وقدحاً، وجنى عليها قولاً وفعلاً، وجعلها مثل السوء؟

بل أي جهة ستصدق ولاء أو صدق شخص تلك سجاياه، حتى لو لم تكن نالها من تركته نصيب؟

وكم قلباً سيتغلب على أضغانه ويحتضن شخصاً كان أبغض إليه من الشيطان بالأمس، جراء ظلمه ومقته؟ ومن ذا الذي يتفهم ذرائع خليله حين يقرر هجره والتحول بقلبه وجسده إلى جبهة أخرى؟ كمثل زوج صارح زوجته على حين غرة بأن عهدها ولّى إلى غير رجعة، وأن أخرى غيرها «حلت مكانها أو أبلغ، من الجسد والقلب الحنون»، على حد قول الآخر:

محا حبها حبّ من كنّ قبلها ... وحلت مكاناً لم يكن حُلّ من قبل!

وفي القديم والحديث نجد قصصاً، ترصد حالة التوتر والقلق التي تغشى نفراً قرروا تغيير مواقفهم طوعاً أو كرهاً، ولكن لأن تلك المواقف كانت موغلة في الإسراف واجهوا عقبات في سبيل إقناع الآخرين بصدق نواياهم، أو الصفح عن ماضيهم. وكثيراً ما احتاج الشعراء الذين يقعون في مثل هذا الفخ إلى معجزة بيانية تستنزل رحمة من يملك أخذهم بذنوبهم، كما حدث مع الصحابي الجليل كعب بن زهير، لما هجا النبي ﷺ وهرب، فلما ضاقت به الأرجاء، جاء

معتذراً في قصيدة، عُدت من عيون الشعر العربي، كان ثمنها أن عفا عنه النبي الحليم ﷺ.

وهي مواطن كما تضطرب فيها أجساد المعتذرين خوفاً ورهبة من الاقتصاص، تهتز فيها قلوب الكرام حلماً وعفواً، إذ كانت العرب تعيب أخذ المذنب المعتذر بما مضى. وفي التنزيل: ﴿ **عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ** ﴾ (المائدة: ٩٥)، وفي الحديث: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

الجماهير البهت

﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾

(القيامة: ١، ٢)

إذا كان الرجل الرمز أو الصنم أو المتبوع، لا فرق، يحتاج إلى لزوم الوسطية في حال المعارضة والموالاة، تحسباً لغير الزمان وتركاً لخط الرجعة حسب التعبير المستهلك، هذا بغض النظر عن المُثل والخوف من الله، فإن حاجة الجماهير إلى القصد في اتباع المخلوقين والانبهار بكراماتهم وفتوحاتهم أشد وآكد.

ولكن المؤسف أنه رغم التسليم بوجود شرائح تشذ عن القاعدة، فإن معظم الجماهير الإسلامية والعربية، هي إلى الصفة التي نعت عبد الله بن سلام رضي الله عنه بها شرائح من اليهود أقرب وألصق، وكان من خبره ما روى بن إسحاق أن ابن سلام قال: «لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نعرف، فكنت مسراً لذلك صامتاً عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها وعمتي خالدة ابنة الحارث تحتي جالسة فلما سمعت خبر

قدوم رسول الله ﷺ كبرت، فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري: خيبك الله والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما ما زدت، قال، فقلت لها: أي عمة، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به، فقالت: أي ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع الساعة نفسها؟ قال فقلت لها: نعم قال فقالت: فذاك إذن. قال: ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا.

قال وكتمت إسلامي من يهود ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت له: يارسول الله، إن يهود قوم بهت وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك وتغيبني عنهم ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني قال فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته ودخلوا عليه فكلموه وساءلوه ثم قال لهم: أي رجل الحصين بن سلام فيكم قالوا: سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا قال فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة باسمه وصفته فإني أشهد أنه رسول الله ﷺ وأومن به وأصدقه وأعرفه، فقالوا كذبت ثم واقعوا بي، قال فقلت: يا رسول الله ﷺ ألم أخبرك أنهم قوم بهت أهل غدر وكذب وفجور، قال فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها».

والرجـــلان اللذان نحن بصدد الحديث عنهما، ما إن أعلنا موقفاً مغايراً للذي عرفا به أول ظهور الأول مدافعاً عن الشـــيعة بشراسة، وبراعة الثاني في رشق وسلخ ضحاياه غير راع فيهم إلاً ولا ذمة، حتى خرج القوم البهت من الفريقين يلوون ألسنتهم، ويقيمون مآتم العزاء، وينشـــرون صحائف سيئات رمزيهما. (نقرة بحث باسم أحد الرجلين كافية لإظهار طوفان من ذلك).

إن هـــذه الجماهيـــر لا تخلو من حالتين: إمـــا أن تكون واثقة في رمزها فتطيعه في المنشـــط والمكره والعســـر واليسر، وتتبع مرشدها الروحـــي الذي رضيت به بعـــد تمحيص واختبـــار، إلا أن ترى كفراً بواحـــاً، لها عليه من الله برهان، وإما أن تكون هذه الجماهير كقطيع من الغنم يتبع راعيها ما أنشد لها الحداء، وهش لها بعصاه، وأوردها مواردهـــا التي اعتـــادت، وفي مضاربها التي ألفـــت، وإلا هجت عنه رافعة أصواتها بثغاء ورغاء، هو في حقيقته لعن وشتم وقذف وتخوين، ﴿ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (الإسراء: ٤٤).

ويســـألونك هل تريد من الجماهيـــر أن ترى العصمة في مخلوق وأن تجعله شريكاً للإله، تتبعه أنى اتجه؟ فأقول: تعالى الله عما يقول الجاهلـــون علواً كبيراً، ولكن أي تأليه أعظم من أن تصفق لمخلوق من دون قيد ســـوى أن يجاري رغباتك؟ فما هـــو إلا أن يحيد عن هواك الـــذي اتخذته إلهاً حتى تكتب فيه معلقة بن كلثوم، وتقطع فيه بفتوى مالك في الخمر.

ولعمري لئن كانت تراجعات أو تحولات أو إعلان مواقف - سمها ما شئت - من هذا القبيل كواشف لسذاجة قطعان من الجماهير، فإنها تطرح بالقدر نفسه سؤالاً، كثيراً ما تردد شكاً: من يقود الآخر، الجماهير أم رموزها؟

بينما الجمهور الواعي يفترض منه أن يحيط قائده بعلامات التعجب، إن ظل جامداً في عالم متغير وسريع، بلا تطور أو تجديد، أو تحول. كما أن السيد الملهم خليق به أن يشك في مريدين لم يسمع يوماً عدا هتافهم» أنت في قلوبنا، وتباً لأعدائك»!

فالنفس اللوامة التي تلفح الضمير، وتوقظ المرء من الغفلة والشطط، لولا شأنها العلي عند المولى، ونفعها لصاحبها ومن حوله، لما أقسم الله بها مقرونة بيوم عظيم يقوم الناس فيه لرب العالمين، ويختل فيه ميزان الكون، وتضع الحوامل أثقالها، مثلما يتبرأ الآلهة من معبوديهم، والأصنام من ناحتيها، بل الشيطان أيضاً من كل أولئك. ملقياً خطبة الحكمة التي يرددها المتبوعون اليوم للتابعين: ﴿ **فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم** ﴾ (إبراهيم: ٢٢). «هل أحد قال لكم: صفقوا لي»؟

إن مراجعة النفس، ظاهرة إخلاص. ونقد التابع والتلميذ للرمز أو الشيخ المتبوع ليس جرماً، بل هو عين النصح والصدق والموالاة.

لكن العار أن تكون المراجعة طلاء تقليدياً، يخفي من ورائه مآرب سيئة، وعيوباً رديئة، وتصدعات في الضمير والمبادئ، أو صفقة غير أخلاقية تفوح منها رائحة الخديعة والاسترزاق.

والجرم أن يكون النقد تجريحاً وشـــتائم وطعناً في الظهر، وكيلاً للهجاء، وتنفيساً عن الضغينة، والفحشاء من القول والزور.

النخب العاذلة والخاذلة

«كَيَدٍ من خلالِ الموج مُدَّت لغريق»[1].

ليس عاراً أشـــد من ترك الإنسان أخاه، وهو يصارع الموت ويجود بنفسه، ثم يتأخر عن مدّ يد الرحمة إليه، إنقاذاً وإسعافاً. وليس أكرم عند الله من نفس أحيت نفساً، وعاهدتها بالرعاية، حتى تستوي على سوقها.

ومع أن هذا المبدأ كان واقعاً بدهياً بين كل الأمم والحضارات، إلا أن تشريعات الإســـلام ضربت فيه المثل الأعلى، مثلما كان للمسلمين في شـــتى العصور الكعب الأعلى في التكاتـــف والتراحم والتعاطف فيمـــا بينهم، مع تفاوت على قدر تطبيقهـــم لتعاليم دينهم التي تنص على أن «المســـلم أخو المســـلم لا يسلمه ولا يخذله». ومن هذا المنطلق كان لا بـــد من التثريـــب على أي تقصير في هذا الجانب، الذي بلغت أهميته مكانة عالية، جعلت بعض الصحابة يستثقل اتفاق «الحديبية» في السنة السابعة من الهجرة، لما كان أحد بنوده يتضمن أن المسلمين في المدينة لا يأوون أي شخص يأتيهم من مكة مسلماً! حتى دفع ذلك عمـــر رضي الله عنه إلى القول الذي قال إنه عمل لتكفيره أعمالاً: لماذا نُعطى الدنية في ديننا؟.

(١) هذا جـــزء من بيت في قصيدة (الأطلال) لإبراهيم ناجي، والبيت: ويد تمتد نحوي كيد.. من خلال الموج مدت لغريق.

لا أريد أن أخوض في مسألة يؤمن بها القاصي والداني، ولكن أردت منها الولوج إلى جانب منها أخطر، لم يعد فقهاء اليوم ناهيك عمن عداهم يمرّ به إلا على استحياء، وهي صنف «المؤلفة قلوبهم»، الذي لم أسمع، وأزعم أنني متابع جيد للخطاب الإسلامي في السعودية للحديث عنه أي ذكر، فضلاً عن أن تنشأ مؤسسة خيرية ذلك مجالها. بل إن مكاتب الجاليات ذات التجربة الرائدة في المملكة، يرتكز معظم جهدها في إقناع الناس بالدخول في الإسلام، من دون أن تهتم كثيراً برعايتهم بعد الدخول فيه، إلا في شكل متواضع لا يتجاوز رحلة برية أو عمرة أو حج. هل أحتاج للتذكير بأن النبي أعطى صفوان بن أمية واديا من الغنم والإبل، والعباس بن مرداس مائة ناقة؟! وكل الذي نسمعه من الناشطين في تلك المكاتب وقد كتبنا عشرات التقارير عنها، أن موازنتها تتلقاها من تبرعات المحسنين.

أين ذهب مصرف المؤلفة قلوبهم؟ هل ألغي أم نسخ؟

ما يتعلق بهذا الجانب كان جملة معترضة، أو إن شئت فقل هامشاً، أما المتن، فهو أن الله -عز وجل- لم ينص في القرآن على «المؤلفة قلوبهم» كأحد مصارف الزكاة عبثاً، بل لمغزى إلهي حكيم، يعني في بعضه أن الدعم المالي ومثله التشجيع المعنوي، يكسب الإسلام ولاء أناس لم تذعن قلوبهم له بالكلية. كما أن بوسعنا القول: إن المال يمكن أن يلعب دوراً شريفاً غير مشبوه في توجيه إمكانات معطلة أو مسخرة فيما يضر أو لا يفيد، إلى ما هو أفضل وأقوم.

وترد هاهنا إشكالات عدة، أولها: هل الإسلام في حاجة إلى قوم يتقوى بهم، وهم عنه معرضون، خصوصاً بعد أن قوي عوده وغدا منتشراً في الأرجاء؟

والإجابة عنه: إن هذا قول عطّل به بعض الفقهاء مصرف المؤلفة قلوبهم[1]، ولكن الإسلام اليوم أضعف من الغداة التي تألف فيها النبي ﷺ صفوان والعباس بن مرداس. كما أن من المسلمين اليوم أباً عن جد من هو أحوج إلى التأليف من صفوان بن أمية، وحتى في العهد النبوي جرى تعزيز إسلام قوم لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، عن طريق تأليفهم[2].

وهل التأليف يكون بالورقة الزرقاء وحدها؟

بل للتأليف صور لا تنتهي، وبينها في العهد النبوي إقبال النبي ﷺ بحديثه على قوم ليسوا خياراً يتألفهم بذلك. وتعظيمه وجهاء القبائل التي تفد إليه تأليفاً لهم ولقومهم. فأي شيء يترك لدى المرء شعوراً بالسرور يمكن أن يعدّ تأليفاً.

ولكن التأليف لمن يخشى على إسلامه، فهل للتأليف معنى بعد أن غدا الإسلام راسخاً في نفس الإنسان؟

(١) لتفصيل هذه المسألة؛ انظر تفسير ابن كثير، عند تأويل آية الصدقات من سورة التوبة. ج٢، ص٤٨١.

(٢) ذكر ابن كثير أن المؤلفة قلوبهم أقسام، منهم من يعطى ليسلم، ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه، ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظراته، ومنهم من يعطى ليجبي الصدقات ممن يليه أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد. المصدر السابق، ج٢، ص٤٨١.

من الذي يشك في أن «أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهمُ... فطالما استعبد الإنسان إحسان»! وفي أن الكرام من الناس يكسب إلفهم ومودتهم بموقف يسير وكلمة طيبة، «وما قتل الأحرار كالعفو عنهمُ... ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا».

أليس هذا بالتعبير المعاصر يعني شراء ذمم الناس... وهل يرضى كريم ببيع ضميره بحفنة من الدولارات؟

رغم ما في هذه الصورة من المثالية التي قلّ ما تتحقق، فإن الكاتبة السعودية جهير المساعد تقول: «الفرق بين الاستثمار والاستغلال، كالفرق بين الهدية والرشوة»، كذلك يمكننا إن وضعنا الشيء في موضعه أن نعين أخانا وصديقنا وأهلنا وأقاربنا وجميع من يطرأ على أذهاننا، بطريقة تحفظ له كرامته، وتُكسبنا وده وإخلاصه ومحبته، تلقائياً، أو على الأقل تقينا شره!

وتسألني عن الإخلاص والولاء، أيشترى بالدينار والدرهم حقاً؟ فأجزم فوراً: قطعاً وبتاتاً، لا، على الأقل في حد رأيي، فمن باعك ولاءه بدينار، غداً إن وجد من يشتريه منه بدينارين لم يتردد، ولكن فرقاً كبيراً كالذي بين السروال والعمامة، بين مدّ اليد لمن معك في الخندق والمبدأ، ولكنه في حاجة إلى من يساعده، وبين من يضع مواقفه في سوق النخاسة يبيعها لمن يدفع أكثر. مع أن مسلماً روى في صحيحه عن صفوان بن أمية رضي الله عنه الذي شهد حنيناً مع المسلمين مشركاً أنه قال: «أعطاني رسول الله ﷺ يوم

حنـــين وإنه لأبغض الناس إلي، فمـــا زال يعطيني حتى صار أحب الناس إلي»[1].

وإن نســـيتَ صديقي، فلا تنس أنه لو يســـتغني عن التأليف قوم لقوتهم ومنعتهم لما قدمت دولة مثل أميركا الورقة الزرقاء بيد، والقوة الخشـــنة بيد أخرى، بل ما ركّعت قومـــك إلا بهذه وتلك، ولذلك دوماً يردد خادم الحرمين الشـــريفين الملك عبد اللـــه بن عبد العزيز على وجه الاعتزاز أن الســـعودية لا فضل لأحـــد عليها عدا الله عز وجل وأبناءها، في إشـــارة إلى أنها إذن حرة فـــي قرارها، وليس لأحد يدٌ تكافئه عليها، محاباة وطمعاً.

إن الشـــخص الذي ترك منهجاً أو فكراً غير ســـديد وأقبل على المجتمع أو المجموعة أو الدولة بقلبه وجســـده، يحتاج إلى حضن أدفأ وعناية أكبر من تلك التي يجدها السابقون الأولون في سلامة المنهج والنيـــات والمقاصـــد. ويكفي على هذا الصعيد الإشـــارة إلى حرمان النبي ﷺ بعد غزوة حنين الســـابقين الأولين من المهاجرين والأنصار غنائـــم جاد بها على غيرهم، فكان من الأنصار مَن رضي وامتثل ومَنْ لم يرضَ، حتى كشـــف لهم النبي ﷺ مقصده وغايته، فقال معاتباً: «ألا ترضون أن يذهب الناس بالشـــاة والبعير وتذهبون برســـول الله إلى رحالكم»؟

ومن المؤسف جداً أنه على المستوى الوطني، لا تجد ذاك التكاتف المثالي بين أي محيط أو طائفة في الجملة، مع نماذج مشرفة لا تنكر،

(١) المصدر السابق، والصفحة نفسها.

حتـــى إن التيار الليبرالي الذي يتحـــدث البعض عن خططه وأهدافه وتكتلاته، اتهم بعـــض أفراده البعض الآخر بأنه متذبذب مهادن غير واضح المبدأ والهدف[1]. وقلّ أن تجد فيه مناصرة منظمة تحت أثواب «المهنيـــة» أو الأعـــراف، أو حتى الأخلاق، كما جســـدت بمرارة حلقة (ليبراليون... ولكن) في مسلسل طاش ما طاش الشهير في ٢٠٠٧م.

أمـــا التيار الإســـلامي (لا أقصـــد المتطرفين) الذي نســـمع عن تنظيماته ودقة ترتيباته بما لا يرقى إليه حتى «الموساد»، ما رأيت مثله خذلانـــاً لبعضه، بل إنك لتعجب من حربه لنفســـه، وهدمه بإخلاص لجهوده، حتى بلغ ذلك من الداعية سلمان العودة مبلغاً، جعله ينصرف عن الـــردود إلى ما هو أبقى وأنقى، إذ يراها «مضيعة، دعها لغيرك، ليس كل ما تقولـــه أنت صحيح، ولا كل ما يقوله الآخرون خطأ، لكن دع عنك المهاترات والتقاذف..

قـــال لي أحدهم يومـــاً: لماذا لا ترد على فـــلان الذي تناولك في الجريدة.. فقلت له: أنا ســـائر في طريقي وقد اخترت ألا أتشـــاغل بهـــذا.. لكن هبنـــي رددت عليه ثم رد هو عليّ هل ســـأقطع أعمالي البناءة وأتفرغ لمعركة الردود؟ أم سأنقطع وأتوقف فيبدو وكأنه غلبني وخصمني؟!

ثم حدثني ماذا بقي لدينا الآن من آثار المعارك الطويلة التي جرت قبل ثلاثين أو أربعين سنة، فضلاً عن ثلاث مئة أو أربع مئة سنة»[2].

(١) نادين البدير، جريدة الوطن، عدد ١٩١٧ في ٢٧ ذي القعدة ١٤٢٦هـ.
(٢) سلمان العودة، موقع الإسلام اليوم، في تاريخ ١٤٢٧/٦/٢٥هـ.

ولو خضت في سـرد نماذج من هذا المحور تحديداً لغدا سـفراً وحده!

وما رأيت أسـتاذي عضو مجلس الشـورى الدكتـور عبد العزيز بن عبد الرحمن الثنيان يتضجر من شـيء ما ضجر من تخاذل أهل الخير والصلاح والتقوى في دعم بعضهم، ومن يسـير على طريقهم، والتأخر في كسـب الناس أياً كان انتماؤهم، والانفتاح على المخالفين لهم وحسن الظن بهم.

تأليف الحسنين!

إننـي بهذا الاسـتطراد الطويل لا أريد أن أنتهي إلى أن حسـن العلوي وحسـن مفتي يحتاجان إلى مـن يتألفهما، ولكنني أقول: أين أولئك الذين ملؤوا آذاننا ضجيجاً وهم يبكون تطرف الشيعة وشتمهم الصديقين؟ وأين أولئك الذين ألقوا الشيعة في سلة مهملات واحدة، وظنـوا أن لا خيـر فيهم أجمعين، وأقنعونا دهراً بأن انتماء الشـيعة العـرب لأوطانهم وقومهم العرب، لا يسـاوي مثقالاً أمـام انتمائهم الديني لإيران وقوميتها... وأن ليس في القوم رجل رشيد؟

وأيـن الذين بكوا حتى بلوا الثـرى، وتكاد قلوبهم تفيض من الدم حزناً على فتيانهم الذين غررت بهم «ساحات الظلام» كما ينعتونها؟

بـل أين قوم لم تجف دموعهم جزعـاً على طيش أقلام في ذلك المنتـدى، وصوروا الأمر باقعة ليس لها من راقعة، وغُمة ليس لها من دون الله كاشـفة. كل أولئك كان مشـروع العلوي السياسي واعتزال

مفتي الســـاحات امتحاناً واختباراً لصدق ثورتهم. مع أنني لا أجادل في وجاهة تساؤلاتهم.

وإنني رغم إيماني التام بأن الحســـنين وأمثالهما، مهما ادعوا أن تصرفات الآخرين تجاههـــم لا تؤثر في مواقفهما إلا أنني أجزم بأن احتضانهما حساً ومعنى سيكون تثبيتاً للأقدام على الطريق المستقيم ومثـــلاً للآخرين. وكم للكلمة الطيبة من أثر تعجز عن تحقيقه «حمر النعم»، وهو ما يقر به مفتي نفسه حينما اعتبر خطاب العتاب الرقيق الـــذي تلقاه من الأمير محمد بن نايف، من أشـــد العوامل وقعاً على نفسه، في تحوله الجديد.

بقي لي أن أذكر أن اعتقاد أحدنا بأن شـــخصاً ما على خطأ، لا يبرر شـــرعاً وعرفاً، هضم حقه واســـتحلال عرضه، وملاحظة ذلك ضرورية ونحن نتحدث عن الأخ حســـن مفتي الذي كثيراً ما برر نيله مـــن عرض الناس بأنهـــم كانوا وكانوا، ويـــردد: «بيني وبينهم خلاف عقدي»، وعن عدد من الســـاخطين عليـــه الذين يكادون ينزعون عنه ثوب «الإسلام»، بدلاً من أن يغفروا له ويصفحوا.

وأنا بذلك لا أطالب حســـن ولا غيره بالكف عن نقد أي مخطئ، ولكن بـ «عدل وإنصاف»، وليس هناك من لا يستحق العدل، مهما بلغ خطؤه وجرمه، وهذه من إحدى المسلمات بين سائر الأمم والديانات، ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَـــنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُـــوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (المائدة: ٨).

كمـــا لا أطالب من قُدح فيهم أن يســـاووا بين من ناصبهم العداء والكره بالذي غمرهم بلطفه ومحبته، ولكن حتى في حال دفاعنا عن ديننا وأنفســـنا وانتزاع حقوقنـــا، يجب أن نلزم العدل في جميع ذلك، فالســـيئة جزاؤها الســـيئة، لا «السيئتان» كما يحدث من الفريقين، بـــل «من عفـــا وأصلح فأجره على الله». هل أحتاج للاســـتدراك بأن الدعـــوة للاحتفاء والوقـــوف إلى جانب كل من مدّ يـــداً «نظيفة»، لا يعني التصفيق لـ«الخب»، الذي لا يجوز أن ننســـاق وراء خداعه... أياً كان؟!

والتحيـــة لكل مـــن مدّ للرجلين يد المودة والصفـــح بعد أن أعلنا مواقفهما.

وأخيراً حاورت الرجلين حتى قال الأول (العلوي) بشـــهادة الزميل عبـــد العزيز الســـويد «رحماك، ذبحتني» وكاد مـــرات عدة يتميز من غيظ استشـــكالاتي، وحتى صارحني الثاني (مفتي) بأنك «أشـــد علي من ضباط التحقيق مدة ســـجني»، فلا أدري هل أشكرهما على سعة صدرهما أم أســـجل امتناني لصحيفة «الحياة» التي نشرت حوارهما، أو لدار (**العبيكان**) التي منحت للمادة الخلود بنشـــرها في كتاب... أم للقراء الذين أحسنوا بي وبالرجلين الظن. أسجل للجميع تقديري.